﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التّوبة: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مقابلةُ الصِّنفِ القبيحِ من الأعراب، بالصِّنفِ الحسنِ منهم، إنصافٌ للفريقين

لَمَّا ذَكر تعالى في الآية السّابقةِ بعضَ الأعرابِ الَّذين يعدُّونَ دفعَ الزَّكاة مغرمًا في قوله تعالى: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ ذَكَر مقابلَهُ، وهو من يتَّخذُ ما ينفقُ مغنمًا في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمعُ قُرْبَةٍ بسكونِ الرّاءِ، وهي تُطلقُ بمعنى المصدر، أي: القُرْبُ، وهو المرادُ هنا، أي: يتَّخذونَ ما ينفقون تقرُّبًا عند اللهِ، وجمع قُربات باعتبار تعدُّدِ الإنفاق، فكلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند الله؛ لأنَّه يُوجبُ زيادة القُرْب[1].

2) ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعاؤُهُ، واستغفاره له، فهو يعدُّها شيئًا يقرِّبُهُ إلى اللهِ، وكذلك تجعل الرَّسول يدعو له حين تصلهُ زكاتُهُ، أي: طمعًا في دعوات الرَّسول، واستغفاره.

الأعرابُ ليسوا سواءً، فإنّ منهم مؤمنين محتسبين، سوف ينالون جنّة الله ورضوانه

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ الأعرابَ ليسوا جميعًا على ذاك النَّمطِ من السُّوء، فمنهم مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى وبِيَومِ القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفقُه في الخيرِ عند اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه ﷻ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ ﷺ عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، لأنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، فيدخلونَ في رَحمتِه ورضوانِه، إنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ على سابقتها:

لمّا ذكرَ حالَ الأعرابِ المنافقين؛ عطفَ عليه بيانَ حالِ المؤمنينَ الصّادقينَ منهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيمانًا صادقًا إذعانيًّا تصدر عنه آثارهُ من العمل الصّالح[1] وفيه دليلٌ على أنَّ الذَّمَّ للأعرابِ في الآياتِ السّابقةِ ليس لأنَّهم أعرابٌ، بل ذمَّهم بسببِ ترك أوامرِ اللّهِ تعالى، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك لبعدِهم عن مجالسِ العلمِ والخيرِ.

الـذَّمُّ بسببِ الأوصـافِ والأعـمـالِ، لا بسببِ الوطنِ ولا العصبيّة

سرُّ تأخيرِ الحديثِ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ إلى هنا:

أخِّرَ الحديثُ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ مِنَ الأعرابِ من بابِ التَّحليةِ بعد التَّخليةِ، حيثُ سبقَ الحديثُ عن الكافرين والمنافقين وأصحابِ السُّوءِ في الآياتِ السّابقةِ، ثمَّ جاء الحديثُ هنا عن الصِّنفِ الإيمانيِّ حتى تتَّضحَ التَّحليةُ بعد التَّخليةِ، فالنّاظرُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾يجدُ مناسبةً حسَنةً؛ لأنَّه لمّا ذكَر في الآيةِ السّابقةِ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا﴾، ذكَر مُقابلَه، وهو مَن يتَّخذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرُباتِ، وهو الإيمانُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذ جزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُهُ الدّائمُ في الآخِرَةِ، وهذا هو عينُ التَّحليةِ.

الـخـتـمُ بالحسنِ؛ لأنَّهُ آخـر مـا يعلقُ بالأذهانِ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10.

دلالةُ ﴿وَمِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

إنصافُ القرآنِ للأعرابِ، بحسب الأخلاق والأفعال

﴿وَمِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ مُبيِّنةٌ للجنسِ، وقد سبقَ تفصيلُ ذلك، والمرادُ هنا أنَّها بَيَّنت فريقًا خاصًّا من الأعرابِ غير الَّذي سبق ذِكرُهم وهم من خالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، فباعثُ الإنفاقِ عندهم الإيمانُ باللهِ لا الخوفُ من النّاس، ولا التَّملُّق للغالبين؛ ولذلك فإنَّ إنفاقَهم قُربةٌ مقبولةٌ من اللهِ تعالى ورسوله ﷺ ولهم حُسنُ العاقبةِ في الآخرة[1].

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ في السّياق:

الوصفُ العامُّ للمجموعِ لا للجميعِ

اللَّامُ فيها للجنسِ، أي: جنسُهم لا كلَّ واحدٍ منهم بدليلِ أنَّ اللهَ تعالى مَدَح مَن يستحقُّ منهم، وذمَّ من يستحقُّ، والشَّأنُ في البدو أن يكونوا أشدَّ كفرًا ونفاقًا[2].

دلالةُ وصفِ الأعرابِ بالإيمانِ، في السّياق الكريم:

ذِكرُ الوصفِ العامِّ، يتضمَّنُ الوصفَ الخاصَّ

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾، وفيه تعرَّضتِ الآيةُ لوصفِ فريقٍ من الأعرابِ بالإيمانِ باللهِ واليوم الآخرِ - مع أنَّ مساقَ الآيةِ لبيان الفرقِ بين الفريقينِ في شأنِ الإنفاق حالًا ومآلًا - وذلك لبيانِ كمالِ العنايةِ بإيمانِهم، وبيان اتِّصافهم به، وزيادةٍ في الاعتناء بتحقيقِ الفرقِ بين الفريقينِ من أوَّلِ الأمرِ.

سرُّ تعدِّي الفعلِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ بالباءِ في السّياق:

من حسنت نيّته، وطاب فعله من الأعراب، كان من الفائزين

قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وفيه عُدِّي الفعلُ ﴿يُؤْمِنُ﴾ بحرفِ الباءِ؛ لأنَّ الإيمانَ في اللُّغةِ بمعنى التَّصديقِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إيمانَهم ضمَّن معنى التّصديقِ الَّذي يحملُ معنى الطُّمأنينةِ والثَّباتِ.

(1) عبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/159، وعبد الفتاح لاشين، المنافقون في القرآن الكريم، ص: 191.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُؤْمِنُ﴾:

الإيمانُ يتجدَّدُ باستمرارٍ

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ ليدلَّ على الحدثِ بلفظِهِ وعلى الزَّمانِ بصيغتِهِ، ليفيدَ معنى الاستمراريَّةِ والتَّجدُّدِ والديمومةِ، فهو إيمانٌ ثابتٌ يتجدَّد مع كلِّ تكليفٍ وتشريعٍ ينزِّله اللّه على رسوله ليعملوا بهِ، فالإيمانُ وقرَ في قلوبِهم، وفاضتْ ثمراتُهُ على جوارِحِهم.

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

من حاز فخار الإيمان، أعطي الخصوصيّة والجزاء الأوفى

تقديمُ شبهِ الجملةِ جاءَ للتَّنبيه على اتِّصال الحديثِ بالمؤمنينَ، وأيضًا للاهتمامِ بِهم من قبلِ المؤمنينَ في التَّعامُلِ معهم.

سرُّ عطفِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ، على الإيمانِ باللهِ:

الإيمانُ باليومِ الآخرِ مركزُ الإيمانِ

السِّرُّ في ذِكرِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ مقرونًا بالإيمانِ باللّهِ: أنَّ الإنسانَ الَّذي لا يؤمنُ باليومِ الآخر لا يكون مؤمنًا باللّهِ ﷻ، والإنسانُ إذا لم يؤمنْ باليومِ الآخرِ، فلا معنى لكونهِ مؤمنًا باللّهِ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ العملَ في الحياةِ الدُّنيا يرتبطُ أساسًا بالإيمانِ بالآخرةِ، كما أنَّ اللّهَ تعالى غَيْبٌ، وكذلك اليومُ الآخرُ من أمورِ الغيبِ، ومن علامةِ المُؤمنين أنَّهم يؤمنونَ بالغيبِ، وممّا يذكرُ في هذا المقامِ أنَّ الإيمانَ باللّهِ تعالى وباليومِ الآخرِ وما فيه من مشاهدَ من أعظمِ مقاصدِ الدِّين، ولأنَّ الإيمانَ باللّهِ واليوم الآخر يستلزمُ الإيمانَ ببقيَّةِ الأركانِ من الكتبِ والرُّسل ونحو ذلك، ولأنَّ الإيمانَ باللّهِ وباليومِ الآخر إيمانٌ بالمبدأِ والمعاد.

نكتةُ وصفِ اليومِ بـ ﴿ٱلْآخِرِ﴾:

اليومُ الآخرُ اسمٌ يطلقُ على يومِ القيامةِ

في وصفهِ بالآخرِ تذكيرٌ بأهوالهِ وتنبيهٌ على الاستعدادِ لَهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الزَّمنَ على قسمين: القسمُ الأوَّلُ: سمّاه اللّهُ الدُّنيا، وهو من بدءِ الخلقِ إلى قيامِ السّاعةِ، والقسمُ الثاني: وهو من قيامِ السّاعةِ إلى ما لا نهاية وسمّاه اللّهُ باليوم الآخر.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَيَتَّخِذُ﴾، دونَ (يحتسب):

الاتِّخاذُ أخْذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ

آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ هنا دونَ يحتسبُ؛ لأنَّ الاتِّخاذَ أعمُّ؛ لأنَّ معناهُ: أخذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ، أي: يفعلُها قاصدًا أن تكونَ قرباتٍ، لا كالذين فعلوها على أنَّها مغرمٌ من المغارمِ يغرمونَها. فاتِّخاذُ الصَّدقاتِ هنا ضدُّ اتِّخاذِ المنافقينَ إيّاها مغرمًا في الآيةِ السّابقة[1]؛ لذلكَ ناسبَ التَّعبيرُ بالاتِّخاذِ ردًّا على الصِّنفِ السّابقِ مِنَ الأعرابِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الاتِّخاذَ مبنيٌّ على القطعِ واليقينِ، بخلافِ الحسبانِ؛ فهو مبنيٌّ على الظَّنِّ، وهذا غيرُ مناسبٍ ليقينِ الإيمانِ عندَهُم.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ (القربات):

ذِكْرُ المقاصدِ، يحقِّقُ إتقانَ الأسبابِ

في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ مجازٌ مرسلٌ، حيثُ أطلقَ المسبَّبَ - وهو القرباتُ - وأرادَ السَّبب، أي: سببًا لحصول القرباتِ عندَ اللهِ، وسببًا لصلواتِ الرَّسولِ ﷺ فالآيةُ تصوِّر مدى حرصِ القومِ على طلبِ القُرْبِ من اللهِ ﷻ ودعاءِ الرَّسولِ ﷺ وعلوِّ هممهم في ذلك، وقد آثرَ التَّعبيرَ بالقرباتِ عن الطّاعاتِ؛ لأنَّ الهدفَ من الطّاعاتِ هو التقرُّبُ إلى اللهِ ورسوله، فعبَّرَ بالمُسَبَّبِ عن السَّببِ؛ لأنَّهُ المقصدُ الَّذي يُبحثُ عنهُ، ومن المَعاني الَّتي تذكرُ في سرِّ تسميةِ الطّاعاتِ بالقُرباتِ أنَّها مستعملةٌ مجازًا في رضا اللهِ تعالى ورفعِ الدَّرجاتِ في الجنَّة، ولأنَّ الجنَّة تُشبَّهُ بدارِ الكرامةِ عندِ اللهِ تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، دون(قُربةٍ) بالإفراد:

دلالةُ السّياقِ على تكثيرِ الأعمالِ، ورفعِ الدّرجاتِ

قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾، وفيه جُمِعَ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ باعتبارِ أنواعِ القُرباتِ أو أفرادِها، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند اللهِ؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُرْبِ، وجمعها أيضًا لتعدُّدِ وجوهِ الخيرِ في الإنفاقِ، فكلُّ نفقةٍ تنفق في الجهادِ أو على الفقراءِ، فهي قربةٌ للّه، فضلًا عن كونِها

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

طاعةً، وفيها وقايةٌ للنَّفسِ من شُحِّها، وفيها معاونةٌ اجتماعيَّةٌ؛ لأنَّها علاجٌ لأدواءِ المجتمع الإسلاميّ بإعطاء السّائل والمحروم حقَّهما إلى غيرِ ذلك من أنواعِ القُرَبِ الَّتي تجتمع في وجوهِ الإنفاقِ، وكلُّ ذلك يطلقُ عليهِ وصفُ القرباتِ[1] ففي التَّعبيرِ بالجمعِ تكثيرٌ لأعمالِهم وإيذانٌ برفعِ درجاتِهم عند اللّهِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، في سياق الآية الكريمة:

دلَّ التَّنكيرُ في قولهِ: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ على عظمِها، وأنَّها مهما كانت صغيرةً أو قليلةً، فهي عندَ اللّهِ تعالى عظيمةٌ وكثيرةٌ.

التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، مؤذنٌ بعلوِّ القدرِ، ورفعةِ المقامِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عِندَ﴾، في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ بـ ﴿عِندَ﴾ في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ للدَّلالةِ على العنايةِ والتَّكريم بما ينفقهُ هؤلاءِ الأعرابِ من الصَّدقاتِ، فهيَ في مكانةٍ عاليةٍ، دلَّلَ على ذلك استعمالُ ﴿عِندَ﴾ في التَّشريف والعنايةِ[2]على سبيلِ المجازِ؛ لأنَّ ﴿عِندَ﴾ في الأصلِ تدلُّ على المكانِ المختصِّ بالَّذي أضيفَ إليه لفظُها.

أهلُ القرباتِ أهلُ العنايةِ والكرامةِ عندَ اللهِ

دلالةُ إضافةِ العنديَّةِ للّهِ ﷻ:

أُضيفَ لفظُ ﴿عِندَ﴾ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها تفيدُ القربَ منهُ تعالى، وتفيدُ أيضًا تشريفَهم ومكانتهم عنده، فإنَّ الجنَّة تُشَبَّهُ بدار الكرامةِ عند اللّهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ﴾ [القمر: 54، 55][3].

القريبُ مِنَ اللهِ تعالى، قريبٌ من عفوه ولطفه وجنّته

بلاغةُ العطفِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

يجوزُ عطفُ صلواتٍ في قولهِ: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾على ما في قولهِ: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾، والمعنى: ويتَّخذ بالأعمالِ الصّالحةِ وصلوات

التماسُ دعواتِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِه، أعظمُ القرباتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

الرَّسولِ قربةً، أي: أنَّه يتقرَّبُ بصدقتِه ودعاءِ الرَّسولِ إلى اللّهِ، ويجوزُ عطفها على (القُربات)، كأنَّه يتَّخذُ إنفاقَهُ قُربةً، ويلتمسُ بهِ صلواتِ الرَّسولِ، ودعاءه كما يلتمسُ القُرباتِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، دونَ (دعواتِ الرّسول):

في اصطفاءِ الصَّلواتِ، على الدَّعواتِ تمجيدٌ

آثرَ التَّعبيرَ بالصَّلواتِ دونَ الدَّعواتِ في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما فالصَّلاةُ عندَ أهلِ اللُّغةِ: هي الدُّعاءُ، والتَّبريكُ والتَّمجيدُ، يقالُ: صَلَّيْتُ عليه، أي: دعوتُ له، وزكَّيت، وعند أهلِ الشَّرعِ مُستعملةٌ في ذات الأركان؛ لأنَّها دعاءٌ بالألسنةِ الثَّلاثة: الحال والفعل والمقال، وسُمِّي الدّاعي مُصلِّيًا تشبيهًا له في تخشُّعِه بالرّاكع السّاجدِ، وقيل: كلُّ صلاةٍ في القرآن؛ فهي عبادةٌ ورحمة إلّا قولَهُ تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: 40]، فإنَّه يريد بيوتَ عبادتِهم، والصَّلاة تعني: الاستغفارَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾ [التوبة: 103]، أي: استغفر لهم، و﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ يعني: استغفارَكَ.

أمّا الدُّعاءُ؛ فهو النِّداءُ، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، أيْ: ناديتُهُ، ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، والدُّعاء أيضًا التَّقَرُّبُ إلى اللّهِ تعالى بِطاعتِهِ أو بِسؤالِهِ رَغبةً في فَضْلِهِ ورَهْبةً من عِقابِهِ[2]، وعلى ذلكَ فالصَّلواتُ أعمُّ من الدُّعاءِ في إطلاقاتِها؛ لذلكَ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بها في هذا المقامِ.

بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

الرّسول للأمّة أمان، ودعاؤه لها ضمان

تظهرُ بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، في حذفِ المضافِ وإبقاءِ المضافِ إليه للمبالغةِ؛ لأنَّهم كانوا يجعلونَ الإنفاقَ سببًا لدعاءِ الرَّسولِ ﷺ لأنَّهُ كان يدعو للمتصدِّقين، قال تعالى:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلا، ودعا)، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/119.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ﴾، ويؤيِّدُ ذلك فعله ﷺ بالدُّعاءِ لآلِ أبي أوفى، بقولِه: «اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوفى»[1].

نكتةُ الجمعِ لـ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾، في قولِهِ: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

جُمِعَت كلمةُ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقدِّمونَه إلى الرَّسولِ ﷺ يدعو لهم بسببِه دعوةً، فبتكَرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[2]، وجُمِعَتْ أيضًا لكثرةِ ما يترتَّبُ عليها من أنواعِ الخيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ.

حُبُّ النَّبيِّ ﷺ لأمَّتِهِ عظيمٌ، لا حدود له

فائدةُ إضافةِ الصَّلواتِ للرَّسولِ الأكرم:

في إضافةِ الصَّلواتِ إلى الرَّسولِ بيانٌ لمنزلتِه ﷺ ولدعائِه للمؤمنين عندَ اللهِ تعالى، فهي صدقاتٌ إلى صدقاتِهم، يضيفُها الرَّسولِ إليهم لتزيدَ في قربِهم إلى اللهِ، فلقد كان الرَّسولُ ﷺ يُصلِّي على المتصدِّق، أي: يدعو لهُ، بالخيرِ والبركةِ، وذلك امتثالًا لقولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة: 103][3] وأيضًا للحديثِ الَّذي سبقَ ذكرُه.

بيانُ عظمِ الصَّلواتِ، وأنّ شرفَ المضافِ، مكتسبٌ من المضافِ إليه

الغرضُ مِنَ استئنافِ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾ في السّياق:

فُصلت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ، كأنَّهُ قيلَ: هل تكونُ صدقتُهم قربةً كما اعتقدوا؟ فكان قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ﴾ جوابًا لهم على سؤالهم[4] والغرض من الاستئناف بشارتهم بقبول أعمالهم.

بشارتُهم بالقبولِ، معنًى تأسيسيٌّ لقوَّتِهِ

وفي استئنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألا، إنَّ)، المُؤْذِنَينِ بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ مِن اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَدوهُ مِن إنفاقِهم، فهي مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه[5].

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1497)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078)، (176).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/879.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/321.

(5) الزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّداتِ، في سياق الآية الكريمة:

التَّأكيدُ على بشارةِ اللهِ تعالى للمؤمنينَ المنفقينَ بالجنَّةِ

قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، أُكِّدَ هذا الخبرُ بافتتاحِه بأداة التَّنبيهِ الدّالَّةِ على الاهتمامِ بما بعدَها وتحقُّقه، وبـ (إنَّ) الدّالَّةِ على تحقُّقِ مضمونِ الجملة، وبالجملةِ الاسميَّة ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، وبإدخالِ (السِّين) على الجملةِ الثَّانية، وهذه السِّين يُقصدُ بها التَّأكيدُ في الإثباتِ على معنى أفعل كذا، وإن أبطأَ الأمرِ، أي: لا بدَّ من فِعلِه، ثمَّ بأنْ جعلَ الرَّحمةَ محيطةً بهم، شاملةً لهم، وهم مغمورون فيها، وهذا أبلغُ من إثباتِها في قولِه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبة: 21]، وهذه الضُّروبُ من التَّوكيداتِ تدلُّ على علوِّ مكانةِ هؤلاءِ الأعرابِ[1].

دلالةُ تعدُّدِ مرجعِ عودِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهَا﴾:

ذهبَ بعضُ العُلماءِ إلى عودِ الهاءِ في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ على ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾[2]، أي: إنَّ الجُملةَ بيانٌ وتأكيدٌ لنفعِ صلواتِ الرَّسولِ لهم، وذهبَ أكثرُهم إلى عودِه على النَّفقة[3] في قولِه تعالى: ﴿مَا يُنفِقُ﴾، فتكونُ الجملةُ تأكيدًا لحصولِ القَبولِ والرِّضا من اللهِ تعالى، ولا مانعَ من الجمعِ بينهما؛ لأنَّ الإنفاقَ وصلواتِ الرَّسولِ يؤدِّيان إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالى، فالنَّفقةُ حقَّقت الوصالَ عندَ اللهِ تعالى، وحقَّقت رجاءَهُم في نيلِ دعاءِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِه لهم والصَّلاةِ عليهم، وكذا صلواتُ الرَّسولِ ﷺ حقَّقت لهم الوصالَ عندِ اللهِ ﷻ.

الإنفاقُ وصلواتُ الرَّسولِ الأكرمِ، سببُ القربِ مِنَ اللهِ ﷻ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قُرۡبَةٞ﴾:

عبَّرَ بالقربةِ، ومعناها في اللُّغةِ: الدُّنوُّ من الشَّيءِ مُطلقًا، والمرادُ بالقربةِ في العمل: هو الإخلاصُ وابتغاءُ مرضاةِ اللهِ ورحمتِه ومثوبته.

القربةُ دنوٌّ وإخلاصٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، ولاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 194.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/434، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 349.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/11.

سرُّ إفرادِ القربةِ، في قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾:

عبَّرَ بالمفردِ دونَ الجمعِ، كما سبق في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾؛ لأنَّها هناك من جانبِ البشرِ، وهنا من ربِّ البشرِ، فالقربةُ عندَهُ هي كمالُ العطاءِ وغايةُ النَّعيم، فلا حدَّ فيها لمننِهِ وفضلِهِ.

قربة الله كمال وعطاء بلا حدود، ولا قيود

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَّهُمۡۚ﴾:

دلَّتِ اللَّامُ على الاختصاصِ، أي: هي قُربةٌ لهم عندَ اللهِ تعالى، وعندَ صلواتِ الرَّسولِ ﷺ[1] فهو اختصاصٌ اختصَّ اللهُ بهِ الأعرابَ المؤمنينَ لتكريمِهم وعلوِّ قدرِهم.

التَّخصيصُ بالعطاءِ تكريمٌ، من الله العليّ العظيم

الغرضُ من أسلوبِ كمالِ الاتِّصالِ:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ عمّا سبقَها؛ لأنَّها واقعةٌ موقعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا ورِضْوانُه، وذلك مِن الرَّحمةِ.

بيانُ أجرِ العملِ، تعظيمٌ لقدرِهِ

وهي الجزاءُ الَّذي سيجزيهِ اللهُ هؤلاءِ الذين أنفقوا في سبيلِ الله[2].

دلالةُ دخولِ السِّينِ، في قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾:

دخلتِ السِّينُ على قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾؛ أنَّها حرفُ استقبالٍ مفيدٌ للتَّأكيدِ وتحقيقِ الوقوعِ، والغرضُ منه تحقُّقُ دخولِهم في رحمةِ اللهِ تعالى، فهو وعدٌ منه، ولن يخلفَ تعالى وعدَهُ.

تأكيدُ قُربِ حصولِ البشارةِ إعلاءٌ لقدرِها

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ:

قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ مجازٌ مرسل، من إطلاقِ الحالِ، وهو الرَّحمة، وإرادة المحلِّ، وهو الجنَّة، فهُم في الجنَّة، تكتنفُهم الرَّحمةُ، ويحيطُ بهم النَّعيمُ من كلِّ جانبٍ. وفي الآية مَدْحُ القوم والتَّرغيبُ في التَّشبُّهِ بحالهم، والتَّنبيهُ

العبرةُ في السَّعادةِ بما في الجنّة من أنعم وهناءة، لا بالمكان في ذاتِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/16، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/880، 11/16.

على عُلُوِّ منزلتهم، ورفعة قَدْرهم، فقد عبَّرَ برحمتِهِ عن الجنّةِ؛ لأنَّها هي الرَّحمةُ الحقيقيَّةُ، وأيَّةُ رحمةٍ بعدها؛ إذا لم يدخلْها الإنسانُ؟[1]. وفي المجاز تأكيدٌ على ما يكونُ في المكان، فليست الأماكنُ جالبةً السعادة والخير والراحة بذاتها، وإنما قدرها في السَّعادةِ والنَّعيم على قدرِ ما فيها، فالجنَّةُ كلُّها رحمةٌ حتى كأنَّها هي الرَّحمةُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ (يدخلهم) في السّياق:

أوثرَ فعلُ الإدخالِ بصيغتِهِ المضارعةِ ليفيدَ التَّأكيدَ في تحقيقِ الوعدِ للمؤمنين ووقوعه لا محالةَ؛ ولأنَّ فعلَ الإدخالِ مناسبٌ للكونِ في الجنَّةِ؛ إذ كثيرًا ما يُقال: دخلَ الجنَّةَ، قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 30][2] وكأنَّ مجرَّدَ الدُّخولِ نعيمٌ، فإن كان كذلك فتجدُّدُهُ واستمرارهُ تجدُّد للنَّعيم.

وعْـــدُ الـلـهِ للمؤمنينَ، حقٌّ لا ريـــب فيـه، والـلـه لا يخلف الميعاد

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ، في قولِهِ: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾:

عبَّرَ بحرفِ الجرِّ (في) الَّتي تفيدُ الظَّرفيَّةَ والاحتواء والاستيعاب، وعليه يكون معنَى إدخالِهم في رحمتِهِ تعالى أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم.

شمولُ الرَّحمةِ أهـلَ الـجنَّـةِ، احـتـواؤُها لهم أعظمُ النَّعيمِ

دلالةُ إضافةِ الرَّحمةِ، إلى ضميرِ الذَّات العليَّة ﴿رَحۡمَتِهِۦٓ﴾:

دلَّتِ الإضافةُ على التَّشريفِ والتَّعظيمِ للجنَّةِ، ولمن يدخلونها؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يضافُ إلى اللّه ﷻ يكتسبُ تعظيمًا وتشريفًا، وهذا ظاهرٌ في أشياءَ كثيرةٍ، كإضافةِ البيت الحرام إليه سبحانه والكتب والرُّسل وبعض المعجزات كناقة صالحٍ، قال عنها: ناقةُ اللّه.

شـرفُ المـضـافِ مـــن شـــرفِ المضافِ إليهِ

دلالةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَت هذهِ الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها في موضعِ الاستئنافِ البيانيِّ التَّعليليِّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: إذا كان اللّهُ سيُدخِلُ الأعرابَ

اللهُ تعالى واسعُ المـغـفـرةِ، كـثـيرُ الرَّحمةِ

(1) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

المؤمنينَ الجنَّةَ مع وجودِ تقصيرٍ منهم ؟ فكان الجوابُ على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فاتِّصافهُ سبحانه بصفتي المغفرةِ والرَّحمةِ تذييلٌ مناسبٌ لما رجوهُ وما استجيبَ لهم.

بلاغة التّذييل ودلالته على التّأكيدِ، في سياق الآية الكريمة:

التَّأكيدُ تقويةٌ للعلَّةِ، وبيان للمقصود من الآية الكريمة

قولهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه أُكِّدَتِ الجملةُ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّها تقوِّي مضمونَ الجملة الاسميَّةِ؛ لأنَّ مجيء التَّذييل جملةً اسميَّةً يدلُّ على التَّأكيدِ، والغرضُ من ذلك الاهتمامُ بهذا الخبرِ، أي: غفورٌ لما مضى من كفرهِم، رحيمٌ بهم يفيضُ النِّعم عليهم[1]، واجتماعُ التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة يؤكِّد اتِّصافَهُ سبحانه بالمغفرة والرَّحمة، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين يستوجبُ منهم المداومةَ على طلبِ الاستغفارِ والرَّحمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ في قولهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ والرَّحمةُ من الصِّفاتِ الثَّابتةِ للهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتِهِ

جاءَ وصفُ المغفرةِ والرَّحمةِ بصيغةِ المبالغةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك لإفادةِ الثُّبوت واللُّزوم، فهاتانِ الصِّفتان (المغفرة والرحمة) من الصِّفات الثّابتةِ للّهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتهِ ﷻ، فهو لم يزَل، ولا يزالُ غفورًا رحيمًا بعباده، أي: إنَّ اللّهَ تعالى غفور لما مضى، فيغفرُ للمقصِّرين في أعمالهِم وللمخلصين فيما يشوبُ أعمالهم من ذنبٍ وتقصيرٍ، ورحيم يرحمُ الصّادقين في إيمانِهم، فيهديهم إلى أحسنِ العملِ وخيرِ المصير، وبما يفيضُ عليهم من النِّعم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ، في موضعِ الإضمارِ:

لفظُ الجلالةِ (الله)، يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ، ولا أحد يساميه بحال

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، لقربِ ذكرهِ سبحانه في قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾، للإشعارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/389.

بتربيةِ المهابةِ في قلوبِ الأعرابِ المؤمنينَ خصوصًا، والمؤمنين عمومًا؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ.

سرُّ التَّقديمِ للفظ ﴿غَفُورٌ﴾، على لفظ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

السَّلامةُ مقدَّمةٌ على الغنيمةِ، ولا بدّ قبل التّحلية من تخلية

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قُدِّمت صفةُ الغفورِ على صفةِ الرَّحيم؛ لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمة غنيمةٌ، والسَّلامة تُطلَب قبل الغنيمةِ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبي ﷺ قال لعمرو بن العاصِ رضي الله عنه: «أَبْعَثُكَ وَجْهًا يُسَلِّمُكَ اللهُ فِيهِ، وَيُغَنِّمُكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ زَعْبَةً مِنَ المالِ»[1]، فهذا من التَّرتيبِ البديعِ بدأَ بالسَّلامةِ قبلَ الغنيمةِ وبالغنيمةِ قبلَ الكسْبِ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ تقديمِ الغفورِ على الرَّحيم أنَّه من بابِ تقديمِ السَّبب على المُسبِّب؛ فإنَّ المغفرةَ سببٌ في الرَّحمة، وأيضًا؛ لأنَّ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمةِ من بابِ تقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ، فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرَّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

نكتةُ تنكيرِ الاسميْنِ الجليليْنِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

سعةُ مغفرةِ اللهِ ورحمتِهِ على عبادِهِ، تطال النّاس قاطبة

أتى الاسمانِ الجليلانِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على العمومِ، ليشملَ عمومَ ما يقعُ منهم من أخطاء تزول بدوامِ المغفرةِ منهُ تعالى، ويفيض عليهم برحمتِهِ تعالى نعمًا لا حصرَ لها، ولا يعجِّل لهم العذابَ، لعلَّهم يتوبون، فيغفر لهم.

(1) الطّحاويّ، شرح مشكل الآثار: 15/327، رقم: (6056).
(2) ابن قيم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»